

رحلة صيف^(١)

ذهبتُ الى الاسكندرية، وفي تقديري أن أقضي ثمتَ يومين، وفي تقدير الله أن أقضي شهرين. فما هو إلا أن خلت ليلة حتى باغتني دابة، فضربَ وأثقل، ثم تمكن فأعضل، ثم أناخ بكلكل. فلما صحوتُ بعد أيام من سكرته، ونجوتُ من مضطرب غمرته، نهضتُ ببقية الجسم الباقية، كما تلبس الخرقه البالية، وعرضتُ نفسي على الباخرة، فالباخرة تحماني إما إلى الشرق وإما إلى الغرب. فقيل: مكانك يا هذا الخيال! إن الباخرة لا تستقل بك في زمن وباء، وقد تستقل بأشباه الجبال

قال الطيب: فعليك بالمكس! حسنَ هواؤها، وجلَّ رواؤها. فقصدتُ المكس وما ادراك ما هي الآن

هي إحدى ضواحي الاسكندرية، قليلةُ المساكن حقيرتها، تمتدُّ سلسلةً أبنيتها مستطيلاً بين شاطئ البحر والرمل. الهواء فيها جافٌ نقيٌ عاصف، والبحر شديد الخفوق لا يعملُ من مداعبة الصخور بمثل خشونة الضواري في تداعبها. والمنظر على الجملة بديعٌ في مطلع الشمس وفي مغربها؛ وللشمس فيها تجلياتٌ باهرةٌ خلال الغمام، وللغمام تشكُّلٌ وتلونٌ فائقان، وللأفق تألقٌ عجيبٌ في ترتيبٍ قدر المنطقة التي يتحزَّم بها وإبرازها في ابداع زينةٍ بين الوردية فالبنفسجية فالفسقية فالزمردي فاللازوردي

(١) كتبت هذه المقالة في نوفمبر ١٩٠٢

فالسنجابيّ ، فما بينها من الالوان التي تُلطّف اجتماعها وتريدها بهاءً على التنويع

ومن محاسن المكس أن الحكومة مهملتها ، فهي من أجل هذا لم تزل قطعة من الطبيعة يعيش فيها الانسان ، كما يُحب أن يعيش المتمتع طالب الراحة . فاذا مرّ في طريق ، فالطريق غير ممهّدة ولا مستقيمة ولا مخوفة بصفتين من الشجر يحجبان النظر ، كما تُحجب عيون الخيل التي تجر المركبات ؛ بل هي ضيقة فواسعة ، صاعدة فنحدرة ، رملية فحجرية ممتدة فنعطفة ، فيها للسائر ما لا يألفه فيستجده كل آن . وفيها حولها من المسافات المفتوحة ما ينطلق معه النظر على مدى البحر الفسيح تارة ، وعلى مدى الرملة الوعساء طوراً

رأيت في خلال إقامتي بالمكس بعض الأشياء التي تجدر بالذكر رأيت الملاحات وعلمت للمرة الاولى علم الشهادة والتحقيق كيف يُصنع هذا « المصلح » الذي يُصلح غذاءنا ، وينزل من حاجيات حياتنا في المنزلة الأولى ، حتى أن الأمصار التي لا يوجد فيها وتستورده من بعيد على ظهور الدواب تتداول قطعة تداول النقود

واني لاستحيي أن أصف بالدقة كيف يُصنع الملح ، لأن أجهل الناس يتصوره . ولكنني لا أخاف القول إن البلاد مستحكمة في قلوبنا ، نحن الشرقيين ، متمكنة من لحمنا ودمنا الى حد أننا لا نتكأف الرؤية ولو عن كُتب ، لنعلم من دقائق الأمر ما لم يُلمّ به تصورنا إلاماً تاماً من مجرد الأخبار

رأيت أيضاً مصطنعَ الحجارة الضخمة المربعة التي تُعدُّ لإتمام جدار الرصيف الشرقي بالاسكندرية، وقد تمَّ منها الوفُّ يحدُّها الناظرُ معروضةً على خطِّ مُستطيل، وهي تُحملُ على ظهورِ البواخرِ بواسطة مرفعةٍ بخاريةٍ منصوبة على رأس صخرة متقدمة في البحر

رأيتُ حيثُ ينتهي النظر من المكس شبه قرية ذات خضرة تدعى «العجمي» عاقتني عن تفقدها ضعفُ الجسم؛ فسألتُ أحد ساكنيها، فقال إنها لا مزية لها عن سائر القرى المجاورة الأُشبىء: وهو أن البحرَ يمدُّ هناك ذراعاً، ثمَّ يعطفه عطفة الضمِّ والتطويق، فينزع قطعةً من الأرض عن أمِّها، ويُحدث منها جزيرة. وفي الجزيرة مقامٌ لوليِّ يُعرف بالعجمي، وهذا المقامُ غاصُّ بالمراكب الصغيرة المهداة إليه نذوراً، والنوادي يعتقدون أنه شفيحهم، وأنه يبركة هذه النذور يرقُّ لهم ويُنقذهم من أخطار البحر

ما أحوجَ الانسانَ الى الإيمان !

هذا كلُّ ما رأيته من جانب؛ أمّا من الجانب الآخر، وهو الذي ينتهي إليه «الترام» قادمًا من الاسكندرية، فالذي استلفتني أمران: أحدهما وجودُ حمامٍ هناك واسع متقن، ومنتدبين للشرب، هذا من خشبٍ قائم فوق الحمام، وذاك مبنيٌّ من الحجر على شكل سرادق رحيب، بينه وبين الحمامِ خطواتٌ. وفي كل مساءٍ يستقدم أصحاب هذين المنتدبين جوقتي موسيقى لإطراب الحضور، الواحدة منهما أرمنية تضرب أُلحانًا شرقية وأُلحانًا غربية، والأخرى إفريقية تضرب أُلحانًا إفريقية

مختارة باتقان لا تبلغه الأولى. ولكن الحانة الأولى التي فوق الحمام يزدحم الناس فيها ألوفاً كل يوم، بخلاف الأخرى التي يجانبها، فلا يجتمع فيها إلا أفراد. ولو شئت أن أفصل أسباباً لنجاح هذه وفشل تلك، لفعلت؛ ولكن مذهبي أن السبب الذي ترجع إليه تلك الأسباب يجملتها هو نفس السبب الذي تشق به أحياناً أمةٌ صالحةٌ وأرضٌ خصبةٌ وعملٌ متقنٌ، وتسعد به أمةٌ فاسقةٌ وأرضٌ قحاةٌ وعملٌ ناقصٌ. فسمه ماشئت واذكرني نجاحُ قهوةِ الحمامِ قهوةِ أخرى أنشئت في المنازل منذ تسع سنين، أي حيناً مدُّ الخطِّ الحديديُّ إلى المكس، فكنا إذا شئنا التنزهُ ركبنا القطارَ إلى المنازل، ووجدنا الناسَ مزدحمين وقوفاً وجالوساً، والمكاسبُ تدفقُ على صاحب المكان من كل صوب. فلما افتقدتها هذه المرة وجدتُ خربةً ساكنةً يتحركُ في بعض جوانبها آناً بعد آناً فاعلٌ يحمل تراباً أو صانعٌ يضربُ قطعةَ خشبٍ، كما يتحركُ الجرذانُ الجسيمةُ في بعض الخرائب العتيقة

ذلك أن وجود «الترام» قتلها، لأنه عطل الخط الحديدي، فأبطله، و «الترام» لا يمتدُّ إليها، بل هو بعيدٌ عنها. فأبي سببٌ نردُّ إليه أمثال هذه الانقلابات التي تكون في عالم الغيب ثم تفاجئ من حيث لا تظن. أما الأمر الثاني الذي استوقفني وشجاني، فهو ما رأيتهُ على كتيبٍ ممتدٍّ شبه القتب بين البحر وبين طريق «الترام» من المدافع القديمة ادوات الدفاع عن مدخل الثغر

تدلُّ مراكزُ هذه المدافع على أنها كانت منصوبةً وراء القتب، كما

تُنسَقُ الإِبْرُ في ورَقَتِهَا، وكلُّهَا من الطراز الضخم، إذا اقبل عليها الناظرُ من بعيد ظنَّهَا بعض الوحوش الضارية من اسدٍ ونمرٍ وفهدٍ، فإذا دنا منها لم تزل مهابتها من قلبه، ولكنه رأى الموت قد مدَّ عليها كفناً من اشعة النهار وانداء الليل، ثم طبع عليها اصابعه، فهي منقطة بتقط صفراء نحاسية، وخضراء طحلبية، على قشر عاتم صادئ، ومنها ما انكسرت له ساق، فانقلب على جانبه، ومنها ما اصابته ضربة في شفته، فانشقت والتوت، ومنها ما أدلى بعنقه الطويل الى التراب كأنه يعضه في احشائه
منظرٌ موتٍ وخرابٍ وعارٍ .

ذنوت من هذه الاشياء وأنا اسيفُ أرسل النظرة الى الغيب، فأرى بها أمم الشرق كلها مجتمعمة تدب ديب الحشرات لاصقة الجباه بالارض من الضعف والجبن ودناءة المطالب، وأطلق الزفرة من صدري، فأؤين بها مجداً عظيماً ملأ العالم زمناً، ثم دفنه ذووه في بعض زوايا الترك والاهمال، ووكلوا الى الذين ابتلوا به قديماً أمر البحث عنه وجلاء آثاره التي غالها الصدأ وغشيتها نبات النسيان، حتى نخرها الى الصميم، واذرف العبرة فأبكي سماء أنطوت طي الجلباب، ونجوماً غارت في التراب، ومعالم عامرة صارت الى تباب

ثم وضعتُ رجلي على عنق الكبير من تلك الضواري الجامدة، وأثقلتُ وطأتها عليه وقلتُ : يا ايها الأسد جعلت للزئير فاستبحوك، وللأقتراس فكموك، وللوثب فقيدوك؛ فلينسج العارُ عليهم مثل ما نسج على جلدك. فإذا نهشتك الايام نهش الكلاب الشلو، فليشهد عليهم كلُّ

أثر في البلاد من بعدك . فانهم خفضوا رايةً ، واضاعوا جيشَ برٍّ ،
وأغرقوا اساطيل بحر ، وأذلوا أمة ، واضاعوا وطناً

هذا كل ما في المكس من قديم وحديث وهو قليل ؛ غير ان مناظر
الطبيعة فيها غاية ما يُتمنى ؛ وتقاوة الهواء وصفاء الطبع وسلامة المعيشة من
المصطلحات المزججة المتعبة افضل وسائل التعافي والسرور ونشاط النفس
فليل مطراه



الزهور - في « ديوان الخليل » بضع صفحاتٍ شعريةٍ عنوانها « حكاية
عاشقين » بدأت في سنة ١٨٩٧ وانتهت في سنة ١٩٠٣ . والمقالة التي نشرناها في
الصفحات السابقة انما كتبها « خليل » في أواخر عهده بتلك الحكاية يوم
ذهب الى رمل الاسكندرية مستشفياً من دأين كنا قد ألما به ووصفهما وصفاً بديعاً
ملئهُ عواطفُ نفسٍ حزينةٍ يأسيةٍ في قصائدٍ من أجود الشعر نختارُ الأبيات التالية
من إحداها ؛ قال :

إني أقتُ على التعلّةِ بالمنى	في غربةٍ قالوا تكونُ دوائي
إن يشفِ هذا الجسمَ طيبُ هوايها	أبُلطفُ النيرانَ طيبُ هواءِ
عبثٌ طواني في البلادِ وعلةٌ	في علةٍ منفايَ لاستشفاءِ
متفرّدٌ بصباتي متفرّدٌ	بكآبتي متفرّدٌ بعنائي
شاكٍ الى البحرِ اضطرابَ خواطري	فيجيني بريحهِ الهوجاءِ
نأو على صخرٍ أصمٍّ وليت لي	قلباً كهذي الصخرةِ الصماءِ
ينابها موجٌ كعوجٍ مكارهي	ويفتها كالسقمِ في أعضائي
والبحرُ خفاقُ الجوانبِ ضائقٌ	كداً كصدري ساعةَ الإساءِ

